تقديـــم

بعد رحلة زمنية ، طولها اثنا عشر قرنا هجريا ، في صحبة مباركة مـع العـشرات من العلماء والأئمة والمفكرين والمـصلحين والحكـام ... وغـيرهم ، مـن أعظـم مـن أنجبتهم الحضارة العربية الإسلامية ، ممن يشكلون : (أعلام المجددين في الإسلام) ، والذين غطت أعمالهم واجتهاداتهم وتجديداتهم في الفكر الإسلامى الجزءين : الأول والثاني من هذه الموسوعة ، لنكون معا على أبواب المجلد الثالث ، ومـا يتـضمنه مـن مجددي الإسلام في القرون الهجرية : الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عـشر.. بعد هـذه الرحلة المباركة ، يبقى هنـاك سـؤال يطـرح نفـسـه وهـــو : مـاذا اسـتفاد الإسلام من التجديد الذي قام به هؤلاء المجددون في الإسلام ؟ أو بمعنى آخر: ماذا تستفيد الحياة المعاصرة ممـا قدمـه مجـددو القـرون الخمـسة عـشر الهجريـة للإسـلام ولأبنائه ؟

هذا السؤال المطروح ، سواء بمعناه الأول أو بمعناه الثاني ، توقف أمامـه عـدد من المفكرين والمؤرخين ، وربما تتوقف أنـت عزيـزي القـارئ أمامـه بعـد قراءتـك لتجديد واجتهاد وعمل مواقف هؤلاء المجددين ، طـوال هـذه القـرون الإسـلامية الماضية، وهو نفس الأمر الذي ساورني أثناء قراءتي لهذه الأعداد الضخمة من الكتب التى اهتمت بموضوع التجديد في الإسلام . وقد سـبقنى - كـما قلـت - مؤرخـون ومفكرون أجلاء ، منهم أحد مجددي الفكر الإسلامى في العصر الحـديث : الراحـل «أمين الخولي» فيما كتب عن التجديد ورجاله في الأربعة قرون الهجرية الأولى ، فقال: «عقدت هذا الفصل - أي : الفصل الذي كتبه - لأجمع فيه متفرق المعـالم والمنـارات الإسلامية التطورية ، فأزيد الوعي لها والانتباه إليها ، وأرجو قرب الاستفادة منهـا ،

وخاصة حين أضم إلى جميع متفرقها تنسيق متشابهها ، والمشترك فيها ، وذلك إذ أشير إلى ما تفيد الجوانب المختلفة من حياة اليوم ، بهذه القدوات الكريمة » .

وهكذا .. رأى الأستاذ أمين الخولي ، أن ما يفيد الحياة المعاصرة في جوانب منها: الجوانب الدينية ، والأخرى الخلقية ، والثالثة العلمية ، والرابعة هي التي تنفع الحياة العملية الاجتماعية .

ففى الجوانب الدينية : قدم المجددون ظاهرة التسامح الدينى الرحب الأفق ، المسالم المتواد البار .. الذي يمثله هؤلاء المجددون ، وعلى وجه خاص ما قدمه المجدد : أبو الحسن الأشعري حين شهد على نفسه في مواجهة غيره ، أو تسامح الخليفة عمر بن عبد العزيز حين كان يناقش معارضيه ومخالفيه ، على الرغم من خروجهم على الدولة .

هذا التسامح من هؤلاء المجددين بجوه الرحب ، وقلبه السليم .. خير ما تستفيد منه الحياة المعاصرة من عمل يقرب بين المسلمين على اختلاف فئاتهم وفرقهم، وذلك تمكينا لهم في مواجهة ما حولهم من تحديات .

ومع التسامح ، قدم المجددون للحياة الدينية حرية الاعتقاد ، وحق الفهم الصحيح للدين ، وهو ما صنعه المجدد «عمر بن عبد العزيز» حين اعترف وأقر لمخالفيه السياسيين الخارجين على أسرته ودولتهم بحرية العقيدة ، ويضمن ذلك لهم، بل ويدعوهم لمناقشته في جو من التسامح .

كذلك .. مما قدمه المجددون للحياة الدينية من فهم الدين على حقيقته التى هى إصلاح الحياة ودفع لها في طريق الخير .. ذلك الفهم الحيوي الذي يدفع عن الدين شر الادعاءات والافتراءات والأباطيل الناتجة عن الذين لم يحسنوا فهم الإسلام ؛ فمالوا به وجنحوا إلى ما هو بعيد عن روحه العملية والحيوية الحقيقية .

وقدم المجددون للحياة الخلقية المعاصرة الكثير من المعاني في كيفية التعامل بسلامة صدر ، ونقاء روح ، مما يلتمس منه الخلق السمح الطيب الذي يعف عن

الخصومة ، ويتسم بالمعاملة الطيبة ، ويتنزه عن الأحقاد . ومثال ذلك : مـا رأيـناه في سلوكيات بعض المجددين في معـاملتهم لمخـالفيهم ؛ حيـث قـدموا أسـمى وأرقـى وأرفع ما في الحياة الخلقية من قيم ومبادئ وقدوات .

وقدم المجددون للحياة العلمية والتعليمية مبادئ وقـيما وأسـسا ، منهـا : سـعة الأفق في تمثل دائرة المعارف البشرية ، ومنها : إجلال العلم وتقديمه على كـل شيء ، وذلك لفهمهم لأهميته ؛ حيث إنه وسيلة الدنيا ووسيلة الآخـرة عـلى مـا يقـررون ، ومنها أيضا : تصحيح مناهج التفكير العلمي الذي لا يتقدم العلم إلا به ، ثم منهـا : النفور والتنفير من التقليد الأعمى للآخرين ؛ حيث ينبغي أن يكون التفكير نابعا من عقل وقلب الإنسان المسلم .

كذلك .. قدم المجددون للحياة العملية نماذج عظيمة من سـلامة العلاقـة بـين الدين والحياة العملية : سلامة صحية واضحة كل الوضوح ، فلا يخالجنا أي شـعور بانفصام الحياة الدينية عن الحياة العملية التى يحياها الفرد ويتعامل معهـا .. فمـثلا : كان الإمام الشافعي – أحد أئمة مذاهب الإسـلام الأربعـة ، عـلى اعتبـار أنـه رأس المذهب الـشافعي ، وأحـد المجـددين في الإسـلام – يـشجع عـلى الرمايـة كرياضـة موجودة في الحياة ، بل ويدفع للمتفوق فيها من ماله الخاص . فيكون هـذا الاهـتمام من الشافعي رضى الله عنه خير توجيه مـن أصـحاب العلـم الـدينى ، وذلـك حـين يسهمون في تنشيط الحياة العملية بالفعل والمشاركة ، وليس بالقول أو التنبيه .

وقدم المجددون للحياة الفنية والأدبية الكثير ، فنرى مـن سـلوكياتهم .. وهـم أمثـلة ونمـاذج ، وقدوة في الصلاح والتقوى .. من رقـة النفس ، ورفاهة الـشعور ما لا يكاد نجـده عنـد كبـار الأدباء والفـنانين في أحـدث العصـور . وهـا هـو عمـر ابن عبد العزيز رضى الله عنه كان يضطرب اضطرابا واضحا عند سماع صوت جميل، ويبكي من ذلك حتى تبل دموعه لحيتـه ، ولا يلـوم أحـدا مـن قـضاته وعمالـه عـلى إسرافه المنفعل في الموسيقى والغناء .

وبهذا التفتح ، وتلك الاستنارة بالنسبة للفن : موسيقى وغناء ، نجد ما يماثله أيضا في الأدب: شعره ونثره، بل إن بعضهم كان من أصحاب الطاقات الشعرية العظيمة مثل الشافعى رضى الله عنه ، فإلى جانب محبته لسماع الشعر وطربه للجيد منه ، فقد كان هو نفسه شاعرا، صاحب ديوان في الشعر، حتى لقب بالإمام الشاعر. وهذا هو «عمر بن الفارض» : سلطان العاشقين ، له من الشعر ما استقر على مر السنين والعصور، وهذا هو «ابن عطاء الله السكندري» له في النثر البليغ ما يطاول وينازع الشعر في الروعة والجمال ، وذلك فيما أورده من حكمه المشهورة .

وهكذا .. يضع هؤلاء المجددون مثل غيرهم من العلماء والأدباء والمفكرين الأساس السليم والصحيح لمثل هذه المنازع الإنسانية ، البعيدة عن الانحراف والخطأ ، ويجعلون من أنفسهم - وهم الهداة في الدين - هداة للشباب ، فيقولون لهم القول المتفهم لواقع الحياة ، القادر على حسن التوجيه توجيها يقبلونه منهم ، حيث لا يتزمتون ولا يحاربون الفطرة التي فطر الله عليها الإنسان .

بل إن ما قدمه بعض المجددين في الأدب والفن ومكانتها في الحياة ، « ما يرأب هذا التصدع الذي تتعرض له الحياة المعاصرة » على حد تعبير الأستاذ «أمين الخولى»- وهذا التعبير حق ؛ إذ إنه حين تجتهد الدولة في إيجاد ألوان من النشاطات الأدبية والفنية يقرر أصحاب القول الدينى حرمة هذه النشاطات ، فيضيع الشباب بين هذين الاتجاهين المتقابلين ، وينتهون إلى ما يحبون في غير اتزان ولا تماسك .. ياليت أصحاب القول الدينى يرجعون في هذا الصدد - إلى بعض المجددين في الإسلام المشهود لهم بالتقوى والصلاح ، يرجعون إلى خامس الخلفاء الراشدين عمر ابن عبد العزيز ، أو الإمام الشاعر الشافعى ، أو الصوفي الحكيم ابن عطاء الله السكندري ليروا منهم يسرا يفتقدونه في أقوالهم .

وغير ذلك من أوجه وجوانب الإصلاح الواعى المفيد يستطيع تجديد الفكر الإسلامى تقديمها لحياتنا المعاصرة ، ولهذا ولغيره من أسباب لم يقتصر التجديد في الإسلام على علماء الدين من فقهاء وأئمة وشيوخ فحسب ، بل شمل أيضا علماء في

الحياة بمعناها الرحـب المتـسع ؛ فكـانوا إلى جانـب علـماء الـدين علـماء في التـاريخ والجغرافيا والطـب والفلـك والاجـتماع والفلـسفة والاقتـصاد والـسياسة والأدب واللغة .. وغيرها من العلوم التى من مجموعها تكونت منظومة الحضارة الإسـلامية على أيدي هؤلاء المجددين من أبناء الإسلام . فاعتبر الحـاكم المـسلم الـذي يحـدث نهضة وتقدما وتطورا يؤدي إلى الرخاء في بلده من المجددين ، كما رأينا في الجـزءين : الأول والثاني من هذه الموسوعة ، وهو ما يظهر بصورة واضحة في هذا الجزء الثالث الذي بين أيدينا . ذلك لأن التجديد في التفكير الدينى ينبغى أن يتماشـى مـع طبيعـة الحياة ، الدائمة التغير بكل ما فيها من أنـشطة ، ولابـد أن تواكـب حركـة التجديـد حركة الحياة في سعيها المستمر ومسيرتها الواثقة .

والسؤال الآن، يدور حول ما يتضمنه الجزء الثالث من ملامح وإشارات. إن نظرة واحدة إلى هذا الجزء الذي بين أيدينا والذي يـشتمل عـلى ثلاثـة قـرون هجريـة هـى: الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ، تكفى وتزيـد للدلالـة عـلى أن هنـاك هجمـة كانت على الإسلام من أعداء الإسلام ، سواء المستعمرين أو المبشرين أو المستـشرقين ، أو حتى السياسيين وفي مقدمتهم الرئيس الأمريكى السابق بوش كما ذكرنا بدليل زيادة عـدد المجددين، خاصة في القرن الرابع عشر الهجري لمواجهة هذه الهجمة المستمرة حتى كتابـة هذه السطور – شوال 1429 هجرية في شهر أكتوبر 2008 ميلادية ، – هجمة يتعـرض لها هذا الدين ، وفي المقابل : نجد هذا الدين قادرا على مواجهة كل التحديات ، وذلـك بتفكير أبنائه من المجددين منذ ظهر هذا الدين إلى اليوم .

إن أول ما يستوقفنا في هذا الجزء من الموسـوعة ظهـور عـدد مـن المـصلحين ، يتقدمهم : «جمال الدين الأفغاني والـشيخ محمـد عبـده وعبـد الـرحمن الكـواكبى» ، وسبق هؤلاء المصلحين رجال فكروا في بعث اليقظة في الأقطار الإسلامية والعربيـة بعد طول سبات في عصور التخلف والانحطـاط . رجـال هـذه اليقظـة يتقـدمهم : «الشوكاني والزبيدي، وبعـد ذلـك الطهطـاوي» : رائـد النهـضة الثقافيـة ، كـذلك يستوقفنا حكام أحدثوا نهضة في بلدانهم، يتقدمهم: «محمد علي» رائد النهضة الحديثة

في مصر، والملك «عبد العزيز آل سعود» صاحب النهضة الحديثة في شبه الجزيرة العربية ، والذي أنشأ المملكة العربية السعودية المنتسبة إلى اسمه ، تأكيدا لما صنعه من ازدهار وتقدم في بلده، كذلك يستوقفنا ظهور عدد من المجددين في شبه الجزيرة الهندية ، ممن حافظوا بجهودهم على ثوابت الإسلام واستمراريتها ، ويتقدمهم «مولانا أبو الكلام آزاد والشاعر محمد إقبال وأبو الأعلى المودودي وأبو الحسن الندوي ووحيد الدين خان» ، وظهور طائفة من المجددين غير الأزهريين في مصر والبلاد العربية ممن أخذوا على عاتقهم مهمة إعادة كتابة التاريخ الإسلامى بصورة يفهمها أبناء الإسلام ، وفي الوقت نفسه تدافع عن الإسلام مما أحدثته كتابات غير المسلمين من افتراءات وأباطيل ، ويتقدمهم : «طه حسين وأحمد أمين وعبد الحميد العبادي» ، وواكبهم في ذلك «العقاد والدكتور هيكل وأمين الخولى وكرد على» ، وغير هؤلاء من الرواد ، تبعهم في ذلك أجيال يمثلها «مالك بن نبى والشرقاوي وخالد محمد خالد والسحار» ... وغيرهم ممن قدموا صورة حقيقية للإسلام .

كذلك ظهرت طائفة من علماء الأزهر المستنيرين من تلاميذ الإمام محمد عبده ، ويتقدمهم : الأئمة الثلاثة : «مصطفى المراغى ومصطفى عبد الرازق ومحمود شلتوت» .. وغيرهم من الأزهريين الذين عملوا من أجل إصلاح الأزهر . كذلك ظهرت طائفة من الدعاة الذين قربوا الإسلام بتعاليمه إلى الناس ، ويتقدمهم : «الباقوري والغزالي والشعراوي والقرضاوي» .

وغير ذلك من جوانب تضمنها هذا الجزء الذي بين أيدينا ؛ ليتم بذلك تغطية القرون الهجرية الخمسة عشر قدر الاستطاعة والإمكان .

والله يوفقنا إلى ما فيه الخير .

سامح كريم

القاهرة الجديدة – أكتوبر 2008